

## الحوار والحجاج والتخاطب الإنساني

عند طه عبد الرحمن

الدكتور صديقي عبد الوهاب

باحث في اللسانيات والحجاج - المملكة المغربية

نسعى في هذه الدراسة لتأكيد أهمية كتابات الدكتور طه عبد الرحمن في ميحث الحجاج والتداوليات، من خلال تناول العلاقات التي تربط الفعل الحوارى، بالفعل الحجاجى، بالفعل التخاطبى. ونهدف من هذا الربط تشقيق الكلام فى ميحث الحجاج، والتأسيس لثقافة الحوار والحجاج والمناظرة، بعيدا عن لغة اللُّجاج والسفسطة فى معالجة القضايا والإشكلات المرتبطة بالخطاب بمختلف أنماطه.

الكلمات المفتاحية: اللغة، الحجاج، الخطاب، البراغماتية، الحوار.

### Abstract

In this study, we seek to focus on the importance of Dr. Taha Abderrahmane' s writings and argumentative and pragmatic researches through dealing with the relationships between the dialogic, argumentative and communicative acts. The purpose of this relationship is to evoke the subject of argumentation and discourse with the intention of founding a culture of dialogue, reasoning and debate away from deterrence and sophistry language in addressing the issues and problems related to discourse in its various patterns.

**Keywords:** argumentative, pragmatic, discourse

توطئة منهجية فى البدء كان الحوار وسبقى الحوار:

تتميز كتابات الدكتور طه عبد الرحمن -أستاذ كرسي الحجاج والتداوليات فى العالم العربى- بكونها تنحو منحى تأصيليا فى دراساته للحجاج، ففى متشعبة بالتراث الإسلامى مجتهدة فيه، مستوعبة للتنظير الغربى فى المنطق والفلسفة والحجاج والتداوليات وتحليل الخطاب، متجاوزة له، لتكون لنفسها نظرية خاصة فى الحجاج والخطاب مؤسسة لأخلاقياته ومبادئه، فى ارتباط وثيق بالتخاطب الإنسانى.

تندرج دراسات الباحث طه عبد الرحمن، ضمن الكتابات التى تروم تأصيل الفعل الفلسفى والمنطق والتداول والحجاج، فى الثقافة العربية الإسلامية، وتجديد الكتابة المنطقية، والاجتهاد فى وضع مصطلحات من صلب اللغة العربية والثقافة الإسلامية، ولهذا لا ضير أن يصادف القارئ عمقا لغويا واصطلاحيا.

## الحوار والمعالج والتخاطب الإنساني محمد طه عبد الرحمن مجلة فصل الخطاب

لما كان القصد على هذا النحو، أن يُعلي الباحث طه عبد الرحمن من شأن الحوار وحاجة المجتمعات الحديثة لـ "الحقيقة الحوارية"، التي تتمثل من خلال ممارسة الناس للحوار كوسيلة إنسانية للتواصل تمكنهم من إنجاز أغراضهم الكلامية، بالتالي يتحقق التخاطب والتفاهم، ففي التخاطب؛ "التبليغ" أي التفاعل بين ذوات المتكلمين وذوات المتخاطبين، وفيه أيضا "التدليل" أي الاستدلال على دعوى ينتهز العارض للدفاع عنها، وفيه "التوجيه" أي توجيه المخاطب لقيم أخلاقية تدفعه للعمل بمقتضاها.

إننا في حاجة اليوم- مع ثورات الربيع العربي- إلى الحوار لتدبير الخلاف الفكري السياسي، بعدما تحولت الكثير من النقاشات والحوارات وفضاءاته، إلى "حروب كلامية" يكيل بعضنا للبعض الاتهام والتجريح والقدح. في بعد بين عن الممارسة العقلانية القائمة على احترام الآخر وأفكاره ومعتقداته، لتدخل الكثير من المناقشات في مجال الدين والسياسة والفكر، إلى مناقشات تطغى عليها السفسطة والتمويه والتسخير والتغليب والتبكيك والمواربة والإعنات، في جو تنخرم فيه قواعد الحوار وأخلاقياته، وقواعد التخاطب ومبادئه، وقواعد التداول ومقاماته.

وتكمن أهمية الحوار والممارسة الحوارية في كوننا لا يمكن أن ننفصل عنهما، للتعبير عن أفكارنا وآرائنا، ولإقناع الآخرين بها، غير أن ممارسته تستدعي الاعتراف للآخرين بحقوقهم فيه للتعبير عن آرائهم، وللترافع عن أفكارهم والاستدلال عليها، في فضاء يسوده الأمن والحرية والاعتراف بالحق في الاختلاف.

إن تركيز طه عبد الرحمن على "الكلام" و"المناظرة" و"الحوار"، دليل على الرغبة في التأسيس لأخلاقيات الحجاج، بالسمو به من اللغو والسخف واللجاج، والنأي بالذات عن اتهام وتجريح الآخرين، والقدح في شخصهم عوض تحليل ونقد أفكارهم، مما جعل خطابه في قضايا الخطاب الأخلاقي مؤسسة على نظر استدلالي، من ناحية الحجاج اللغوي، ولا ضير فالحوار عنده مراتب، والاستدلال اللغوي له شروط ومبادئ.

لأهمية الحوار وحاجة البشرية إليه خص طه عبد الرحمن بأكورته القيمة "في أصول الحوار وتجديد علم الكلام" للتأصيل للمحاورة النقدية وأخلاقيها، وأهميتها في ارتباط وثيق بالمناظرة كأسى تجل للممارسة الحوارية، وفي ارتباط أيضا بالحجاج كمبحث تداولي تفاعلي يتحقق فيه قصد الادعاء، وحد الحجاج عند طه عبد الرحمن "فعالية تداولية، فهو تداولي لأن طابعه الفكري مقامي واجتماعي، إذ يأخذ بعين الاعتبار مقتضيات الحال...، وهو أيضا جدلي لأن هدفه إقناعي قائم بلوغه على التزام صور استدلالية أوسع وأغنى من البنيات البرهانية الضيقة"<sup>1</sup>

ومن هذا المنطلق نجد الحجاج مرتبطا بالحوار ارتباطا وثيقا، فبلوغ الممارسة الحوارية، يستدعي استحضار الشروط العقلانية للحجاج، من التفاعل بين المتخاطبين، واستحضار شروط المجال التداولي للمناظرة، بغية الإقناع والتبليغ، فالحجاج "العاقل هو السبيل الأنجع لتجويد العقل وتكثير الحق، إنه المركب إلى تقويم الكسب الفكري والجماعي، وهو صمام أمان يحفظ الحوار من الانزلاق إلى صور سيئة من طرائق تدبير الاختلاف الذي جعله الباري سنة لا تتخلف في الأنام"<sup>2</sup>

ولبلوغ هذا القصد -تكثير الحق وتجويد العقل- فقد احتفى طه عبد الرحمن بالممارسة الحوارية التي اعتبرها السبيل الأنجع لبلوغ الحق وذلك للمزايا الآتية للحوار وهي<sup>3</sup>:

- الحوار لا يوجد إلا حيث يوجد الاختلاف في طرق البحث.
- ذلك أن الوصول إلى الحقيقة يكون بطرق شتى، ومنظورات مختلفة ومناهج متعددة، لأن أصل الحق أن يتغير ويتجدد بالتالي يكون الطريق الموصل إليه متعددا.
- تواصل الحوار بين الأطراف المختلفة، فئات أو أفرادا يفضي مع مرور الزمن إلى تقلص شقة الخلاف بينهم

ومقتضى هذه المزية أنه كلما كان الحوار بين المختلفين في الفكر والسياسة وغيرها زالت مكامن الخلاف، وساد الود والتقرب بينهم، وبذلك ينزل الحوار منزلة الدواء الذي يشفي من أمراض الاستبداد بالرأي والفكر

- الحوار يسهم في توسيع العقل وتعميق مداركه، من خلال النظر من جوانب متعددة لزوايا المعرفة، مما يسهم في قلب العقل وسعته.

ولهذه الغايات احتفت كتابات الدكتور طه عبد الرحمن بـ"المناظرة" باعتبارها أجلى ممارسة حوارية هدفها الاشتراك في الوصول إلى الحق، ومنه لا بد من إحيائها، والاستفادة من طرقها الاستدلالية والحوارية لمعالجة الكثير من اختلافاتنا الفكرية، بسلطان العقل والحوار، لا بطغيان التسيد والاستبداد<sup>4</sup>.

وسعيا للتأسيس لثقافة الحوار والممارسة الحوارية العقلانية الناضجة، المحترمة لحقوق الآخرين في التعبير عن آرائهم دعا الباحث إلى المسارعة بوضع خطة تربوية تعيد للحوار ومباحث الحجاج أهميتها في حياتنا السياسية والفكرية، في عصر الثورة المعلوماتية والتواصل التي أصبح فيها "يستبدل بعنف السلاح، عنف الكلام؛ والشاهد على ذلك تلك المناقشات الصاخبة التي تدور في المجالس والمجامع الديمقراطية والتي يجري الإقذاع فيها مجرى الاقتناع"<sup>5</sup>

## الحوار والمجادلة والتخاطب الإنساني عند طه عبد الرحمن ————— مجلة فصل الخطاب

يقتضي الحوار العقلاني، الاعتراف للمخاطب بحقوقه في الاعتراض عن ما يلقي إليه من خطاب، مبدئياً رأيه معترضاً منتهضاً بأدلته لدحض أو مساندة الدعوى التي تعرض عليه للنقاش، ويقتضي ذلك التزام طرفي التخاطب بأخلاقيات الحوار؛ وهي مناقشة الأفكار والآراء دون تجريح لأعراض الأشخاص، والاعتراف لهم بحقوقهم في التعبير عن آراء دون عنف، أو تسيد أو استبداد.

ونظراً لأهمية الحوار فإننا نروم من خلال هذه الدراسة لـ "حجاجة الحوار، وحوارية الحجاج" من خلال البحث عن مرتكزات الحجاج اللغوي في تصور الباحث طه عبد الرحمن، وفي منظور "التداولية المدمجة" Pragmatique intégrée، مع اللسانيين الفرنسيين أرفالد ديكر وOswald Ducrot وأنسكومبر JC. ANSCOMBRE، وقد خص جاك موشر Jacques Moeschler كتاباته لتعريف الحوار ومكوناته، وقواعده، كمبادئ تضمن احترامها استمرار الحوار والتخاطب بين العارض والمعارض" والتي تقتضي احترام مجال الآخر وعدم تهديد وجهه<sup>6</sup>، إلا أن المهم بصدد طرح موشر جعله الحوار الحجاجي من استراتيجيات الخطاب، سعياً منه لبناء الانسجام الحجاجي Cohérence argumentative، الضروري في كل حوار حجاجي، وإلا عد سفسطة ومغالطة.

سنربط هذا الزاد المفاهيمي بالتخاطب الإنساني، قاصدين من ذلك المساهمة في تعقيل الممارسة الحوارية وربطها بالحجاج واستحضار التخاطب الإنساني، بأبعاده التداولية، والمقام الاجتماعي للمخاطب وحقوقه في ممارسة الحوار بعيداً عن السفسطة والتمويه والتغليب التي أصبحت تعج بها نقاشتنا السياسية والفكرية في عصرنا اليوم، وربما حب البعض للسلطة والتسلط جعله يلقي بالكلام على عواهنه دون سند يعضده، وحجة تزكيه.

### 1- الحجاج اللغوي والتخاطب الإنساني:

### 2- مفهوم الحجاج:

يتحدد الحجاج Argumentation بارتباطه بالتفاعل، والسعي لإقناع المخاطب برأي أو فكرة ما، ففي التحديدات اللغوية يُحيل فعل حجّ وَحَاجَجَ على القصد، والمغالبة بالحجة، فالمغالبة بالحجة والقصد من بين الإرشادات التي تشترط في خطاب ما كي نسميه بالحجاجي.

ومنه يبدو بدهاً أن الحجاج نظرية تفاعلية بين المخاطب والمخاطب، بواسطة اللغة من خلال انتهاض أحدهما وليكون العارض للتدليل على دعواه، فهو بهذا المعنى سمة إنسانية بامتياز، فالإنسان يحتاج للحجاج مع نفسه وغيره، فالذات قد تتخذ موقفاً، أو تتبنى فكرة

تحتاج لإفحام الآخرين بالحجج، أما الغير فالفاعل والمفاعلة معه لا تكون إلا بحجج، وإلا عد خطاب المحاج بدون سند يعضده لغوا أو لجاجا وسفسطة.

لا ضير بالتالي أن نجد في الخطاب القرآني ما يعضد ذلك، نحو ما نجد في قوله تعالى: "وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ"<sup>7</sup>، في آية أخرى "وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ"<sup>8</sup>، تدل على أن الحجاج سمة إنسانية بامتياز، ففي الحجاج يتجلى التدافع والترافع والاختلاف؛ بل نجد في آيات أخرى تشتط في الحجاج على دعوى العلم بها، نحو ما نجد في قوله تعالى: "هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَّجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ"<sup>9</sup>.

ومن هذا الجانب يكتسي عنوان الدراسة أهميته في كونه يربط فعل الحجاج بالإنسان، لأن الذي يميز الإنسان كـ "حيوان ناطق"، حاجته للغة والحجاج، ومن هنا يكتسي "الحجاج اللغوي" أهميته، مقارنة مع الحجاج الصوري، لكون الأول يحتاج إلى مراس، وتمكن من ناصية اللغة، ومعرفة بأحوال ومقامات الكلام، ومقتضيات القول غير المطلوبة في "الحجاج البرهاني" المنبني على العلاقات الحسابية الصورية، كذلك التخاطب فهو سمة إنسانية، لأنه من المعروف أن التواصل غير التخاطب، فالثاني يحتاج إلى سمي "التبليغ" و"الفاعل"، فالتبليغ بمعنى أن الذات المتكلمة، في نقلها للقول الطبيعي تعتمد طريقي الإظهار والإضمار، وأما التفاعل فهو استحضار شرط أن ينتفع المخاطب من الكلام، وهو ما يميز الفعل الإنساني عن غيره من الفعل الحيواني.

ومقتضى القول، أن علاقة الحجاج اللغوي بالتخاطب الإنساني، علاقة تلازم، بحيث أن الحجاج أصلا في اللغة يعني المقارعة والمبالغة بالحجة، أي أن هناك تفاعلا بين متخاطبين (مخاطب ومخاطب)، مما يضيف على الخطاب سمته التخاطبية، المشروطة، بالسمات المشار إليها، غير المشروطة في الآلة.

فانتفاء سمي التبليغ والتفاعل عن الخطاب، يدخله في زمرة الخطب، ومنه لزم في أقوال الخطاب الانضباط لقواعد التبليغ، وقواعد التهذيب حسب (طه عبد الرحمن 1998)، انسجاما مع مفهوم الاستقامة بمعناه الأخلاقي.

## 1-2 الحجاج اللغوي من منظور التداولية المدمجة:

يعتبر مصنف بيرلمان Ch.Perlmane وتيتكا O.Tyteka (1958)<sup>10</sup> أول مؤلف خصص لمبحث الحجاج، لتمييزه عن المباحث المتاخمة له كالبلاغة الكلاسيكية Rhétorique كما عند أرسطو، وتحديد مجاله وآليات اشتغاله، فمجال اشتغال الحجاج هو اللغة الطبيعية، وآليات

## المعار والمخاطب والإنساني محمد طه محمد الرحمان ————— مجلة فصل الخطاب

اشتغاله، بلاغية ولسانية وتداولية، ليتطور الدرس الحجاجي من منظور التداوليات المدمجة Pragmatiqueintègre مع أرفالد ديكر في سعي لتحديد الحجاج كنظرية استدلالية تروم التأثير في المستمع/المخاطب بدعوى ما، علاوة على الفصل بين الحجاج والبرهان، من خلال ربط مبحث الحجاج بالخطاب الطبيعي القائم على الاحتمال، وربط البرهان بالخطاب الصناعي/الصوري القائم على الحتمية، وهو ما يتلمسه الباحث في تحليلاته (1973)<sup>11</sup>

ويرجع وضع نظرية الحجاج في اللغة إلى أعمال اللغوي الفرنسي أ.ديكرو O.Ducrot، (1973)، تطويراً لنظرية الأفعال الكلامية La théorie des actes langages التي أسس فرشها النظري الانجليزي جوزيف أوسطين Austine. (1970)، ونظرية الأفعال الكلامية، تربط الخطاب بشروط التداول ومقتضيات القول، وتعتبر اللغة ليست وسيلة للتواصل فقط، بل وسيلة للتأثير والإقناع والحجاج.

وقد وسع بول كرايس نظرية الأفعال الكلامية، من خلال تحديد قواعد الفعل الكلامي، واعتبار علاقة المخاطب بالمخاطب يجمعها مبدأ عام سماه " مبدأ التعاون" Principe de coopération.

وتكمن الإضافة النوعية لأرفالد ديكر، في اقتراحه فعلين لغويين جديدين هما: فعل الاقتضاء وفعل الحجاج، وبذلك ربط الخطاب بالإقناع، وشروط التداول، في إطار مبدأ الاقتضاء Principe de présupposition، أي ربط الخطاب بمقتضيات الحجاج، وسباق الدفاع عن الدعاوى والمرافعة بغية الإقناع والتأثير، وهذا ما دافع عنه في كتابه (Dire et ne pas dire)<sup>12</sup>، ففيه نظر للغة الإنسانية كظاهرة للعب الكلامي اليومي، فنحن لا نتكلم إلا بقصد التأثير، فاللغة هي التي تمكن المتكلم على انجاز قصوده الكلامية، وهو ما أكدده طه عبد الرحمن حين ربط الكلام بالقصد "لا كلام إلا مع وجود القصد وصيغته هي: الأصل في الكلام القصد"<sup>13</sup>

وفي هذا الصدد ظهرت نظريات حجاجية، تفرق بين فعل الحجاج، وفعل البرهان، من خلال ربط فعل الحجاج بالخطاب الطبيعي، باعتباره لا يقدم حقائق حتمية بقدر ما يقدم مقدمات لها نتائج تساهم في ترجيح دعوى معينة يدافع عنها متكلم ما، أما الفعل البرهاني فهو مرتبط بالخطاب الصناعي القائم على الاستدلال الصوري والقياس المنطقي فنتائجه حتمية قطعية ومنه فإن الحجاج اللغوي يتميز عن الحجاج الصوري بكونه:

- نسبي؛ فالحجج اللغوية التي يدلي بها المتكلم للتحاج لدعواه، لا تتسم بسمة القطعية واللزوم كما في الحجج الصورية، بل هي حجج نسبية تساهم في التأثير والإقناع لا غير.
- سياقي؛ فسياق الخطاب هو الذي يعطي لحجة لغوية قيمتها، والتي قد تفقدها في سياق آخر

-احتمالي؛ ومفاده أن الحجاج اللغوي ليس حتميا غير قابل للدحض، بل هو احتمالي قابل للإبطال متى أدلى أحد بحجة أقوى.

وصفوة القول، فالمقارنة بين الحجاج والبرهان تعني من خلال أقوال نظار الحجاج أو البلاغة الحديثة المعاصرين كما عند بيرلمان وتيتكا وديكرو وأنسكومبر، تعني التمييز بين مبحثي الخطاب الطبيعي، والخطاب الصوري، بين نظام المنطق ونظام اللغة، أو بين الاستدلال والحجاج، وسيأتي التفصيل في الفروقات بين النظامين فيما سيأتي.

#### 1-2-1 مفاهيم الحجاج اللغوي:

يرتبط بالحجاج اللغوي من منظور التداولية المدمجة عدة مفاهيمية، تمكن الباحث من فهم آليات واستراتيجيات فعل الحجاج في اللغة الطبيعية لعل أهمها:

- المواضع الحجاجية
- الاتجاه الحجاجي
- الروابط الحجاجية
- العوامل الحجاجية
- التساند الحجاجي
- التعاند الحجاجي
- الفئة الحجاجية
- الإرشادات الحجاجية
- العلاقات الحجاجية
- القوة الحجاجية
- السلم الحجاجي

#### 1-2-2 الموضع الحجاجي:

فلنبداً بتحديد المقصود بهذه المفاهيم عند ديكرو وأنسكومبر، فالموضع الحجاجي مفهوم تم استمداده من الإرث الفلسفي الأرسطي، ويقصد به حجاجياً مجموعة من المبادئ والمعارف العامة المشتركة والمقبولة اجتماعياً، والتي تسوغ وتبرر ربط مقدمة حجاجية بنتيجة حجاجية.

فجملته: العمارة جميلة، وفي موقع استراتيجي فلنشترها

يمكن فهمها تبعاً للموضع الحجاجي كما يلي؛ بقدر ما تكون العمارة جميلة وفي موقع استراتيجي يكون شراؤها مفيداً.

ويُعنى بالاتجاه الحجاجي L'orientation argumentative ، مفهوم حجاجي يساهم في تحديد القيمة الحجاجية لقول حجاجي ما، وذلك بالتركيز على ما يتضمنه من أدوات وروابط لغوية تساهم في توجيه القول إلى نتيجة معينة نحو ما نجد في الجملة الآتية:

حج جمهور غفير لفعاليات المهرجان، حضر حتى وزير الثقافة

تتجه الجملة لتأكيد نجاح فعاليات المهرجان نظرا للجمهور الغفير الذي حج المكان، بل حتى وزير الثقافة كان من بين الحاضرين، فورود الرابط "حتى" في القول توجيهه إلى نتيجة حجاجية هي نجاح المهرجان لاسيما وحضور وزير الثقافة.

ونظرا لاشتغال الحجاج في الخطاب الطبيعي فإنه يتوسل إلى آليات حجاجية على شكل روابط حجاجية Les connecteurs argumentatives، وعوامل حجاجية les opérateurs argumentatives

ويكمن الفرق بين المفهومين في كون الروابط الحجاجية تربط بين قولين حجاجيين: بين مقدمة حجاجية ونتيجة حجاجية، ومعلوم أن اللغات الطبيعية تزخر بروابط حجاجية، ومنها في اللغة العربية على سبيل المثال: بل، لكن، حتى، لاسيما، إذن، بما أن، إذ، إذا...

نقول مثلا: أنا مريض، إذن بحاجة لزيارة طبيب

فالرابط (إذن) يربط بين القولين الحجاجيين: (أنا مريض) مقدمة، وبين (بحاجة لزيارة طبيب) نتيجة.

أما العوامل الحجاجية فهي لا تربط بين الأقوال الحجاجية بقدر ما تحصر وتقيد الإمكانيات الحجاجية للقول الحجاجي، ومن أمثلتها في اللغة العربية: من قبيل، تقريبا، ربما، قليلا، كثيرا، لم.. إلإ.

ويمكن أن نمثل لها بالجملة الآتية:

لم يحضر الندوة إلا قليل من الأساتذة

فالعوامل (لم إلا، قليلا) تخبرنا أنه لم يحضر الندوة كل الأساتذة، بل قليل منهم فقط.

نقول إن هناك تساند حجاجي أو تساوق<sup>14</sup> إذا تم سوق حجج لخدمة نتيجة حجاجية، ولتوضيح الأمر ننطلق من الأمثلة

- أنا متعب، إذن أنا بحاجة إلى قسط من الراحة

- الجو جميل، لنتنزه

فمن الواضح أن الحجة والرباط الحجائي يساند النتيجة، فالتعب يستدعي قسطاً وفيراً من الراحة، وجمالية الجو تقتضي التنزه للاستمتاع بالمناظر الجميلة، إذن نقول إن هناك تساند بين الحجج والنتائج، أي تساوق.

#### 1-2-6 التعارض الحجائي Coorientation argumentatif:

نسمي تعارضاً حجائياً أو تعانداً حجائياً<sup>15</sup>، حينما يتم سوق أقوال حجائية لا تخدم نفس النتيجة نحو:

العمارة واسعة، حديقته جميلة، وموقعها استراتيجي، لكنها باهظة الثمن  
فالحجج التي تم سوقها (العمارة واسعة، حديقته جميلة، وموقعها استراتيجي) لا تخدم النتيجة (باهظة الثمن) بمعنى لن أتمكن من شرائها.

#### 1-2-7 الفئة الحجائية La classe argumentative:

يعرف ديكرو الفئة الحجائية بمجموعة من الأقوال الحجائية التي يعتمد عليها المعارض لخدمة نتيجة حجائية معينة<sup>16</sup>، وتتميز الفئة الحجائية بكونها نسبية وتدرجية.  
نقول مثلاً: هذا المرشح فاسد ومرتش ومتورط في صفقات مشبوهة، فلن يفوز في الانتخابات

فالأقوال الحجائية (مرشح فاسد، ومرتش، ومتورط في صفقات مشبوهة)، تنتمي إلى فئة حجائية واحدة متساوقة مع النتيجة (لن يفوز المرشح في الانتخابات).

#### 1-2-8 الإرشادات الحجائية:

يقصد بالإرشادات الحجائية مجموعة من العلامات التلفظية التي ترشدنا إلى دلالة الملفوظ بالتالي تأويله.

ويعرفها ديكرو بكونها علامات يجري تقديمها إلى أولئك الذين يسعون إلى تأويل ملفوظ معين، فتدفعهم للبحث في وضعية الخطاب عن المعطيات التي تفيد بصورة ما في إعادة بناء المعنى المقصود من المتكلم "والإرشادات على ضربين: إرشادات تلفظية، وإرشادات حجائية.

ويُعنى بالإرشادات التلفظية تلك العلامات اللغوية التي تعين مؤول الأقوال الحجائية على فهم دلالتها نحو ما نجد في القول الآتي:

- مادام أن الجو ممطر، فأنا لن أسافر

## المحاور والمعالج والتخاطب الإنساني محمد طه محمد الرحمن \_\_\_\_\_ مجلة فصل الخطاب

فالرابط الحجاجي (مادام) يقدم للمؤول إرشادا حجاجياً، مفاده صعوبة سفر المتكلم مع أن الجو ممطر.

أما الإرشادات الحجاجية وتدل على الوظيفة الحجاجية المميزة للغة الطبيعية، أي البحث في مختلف الآليات اللغوية وغير اللغوية؛ كالروابط والعوامل الحجاجية والتي تخلف أثراً وقوة حجاجية في الخطاب الطبيعي، كالاستفهام، و"حتى" و"بل" في اللغة العربية<sup>17</sup>

### 1-2-9 العلاقة الحجاجية:

تنظر التداولية المندمجة للأقوال الحجاجية باعتبارها مرتبطة تراتبياً وتدرجياً، داخل فئة حجاجية وتختلف قوة وضعفاً مشكلة سلماً حجاجياً، غير أن المميز للعلاقة الحجاجية، أنها تختلف عن العلاقة الاستلزامية التي تربط الأقوال في الخطاب الصناعي فالعلاقة الاستلزامية نتيجتها قطعية وحتمية، أما العلاقة الحجاجية في الخطاب الطبيعي فهي نسبية واحتمالية.

ويمكن التمييز بين العلاقة الحجاجية والعلاقة الاستلزامية بالمثالين التاليين:

- (أ) كل إنسان فان، سقراط إنسان، إذن سقراط فانٍ

- (ب) الجو جميل، والبحر هادئ، إذن لنتنزه

فالعلاقة بين الأقوال الحجاجية والرابط (إذن) والنتيجة في (أ)، علاقة استلزامية حتمية، أما العلاقة بين الأقوال الحجاجية في (ب) فهي لا تعدو أن تكون احتمالية ونسبية، وهي التي نسميها بالعلاقة الحجاجية. فترابط الأقوال في الحجاج اللغوي "لا يستند على قواعد الاستدلال المنطقي، وإنما هو ترابط حجاجي لأنه مسجل في بنية بصفته علاقات توجه القول وجهة دون أخرى"<sup>18</sup>

### 1-2-10 القوة الحجاجية La force argumentative:

ترتبط الأقوال الحجاجية داخل فئة حجاجية بعلاقات تراتبية وتدرجية، لخدمة نتيجة حجاجية يروم العارض الوصول إليها، وتتجلى قوة الحجة في خدمتها للنتيجة، ونستعير الأمثلة التالية من الباحث طه عبد الرحمن:

- حصل زيد على شهادة الإجازة

- حصل زيد على شهادة الماستر

- حصل زيد على شهادة الدكتوراه

فهذه الأقوال الحجاجية تخدم نتيجة معناها كفاءة زيد العلمية، إلا أن الحجة (حصول زيد على شهادة الدكتوراه) أقوى حجة على كفاءة زيد العلمية. ولهذا نحس بغربة هذه الجملة وشذوذها:

\* لم يحصل زيد على شهادة الدكتوراه، بل لم يحصل على شهادة الإجازة، ويرتبط بمفهوم القوة الحجاجية، مفهوم السلم الحجاجي.

#### 11-2-1 Echelle argumentatif السلم الحجاجي

السلم الحجاجي علاقة تراتبية للحجج داخل فئة حجاجية تخدم نتيجة يروم العارض الإقناع بها

نقول إن ( ح 1 وح 2 وح 3) تشكل سلماً حجاجياً إذا كانت مرتبة ترتيباً يخدم ن حيث ح تعني حجة، ون تعني نتيجة.

ويعرفه الدكتور طه عبد الرحمن بكونه "مجموعة غير فارغة من الأقوال مزودة بعلاقة ترتيبية وموفية بالشرطين:

أ- كل قول يقع في مرتبة ما من السلم يلزم عنه ما يقع تحته، بحيث يلزم عن القول الموجود في الطرف الأعلى جميع الأقوال دونه.

ب- كل قول كان في السلم دليلاً على مدلول معين، كان ما يعلوه مرتبة دليلاً أقوى عليه"<sup>19</sup> ونستعير أمثلة طه عبد الرحمن لتوضيح المفهوم:

ن = نبل زيد

- زيد أكرم عدوه

- زيد أكرم صديقه

- زيد أكرم أخاه

فهذه الحجج تشكل سلماً حجاجياً مدلوله نُبل أخلاق زيد ولهذا سترد الحجة (زيد أكرم عدوه) في أعلى السلم، لأنها أكثر قوة ودلالة على نُبل زيد.

ويرتبط بالسلم الحجاجي قوانين منها:

أ- قانون الخفض

ب- قانون تبديل السلم

ج- قانون القلب

ومقتضى قانون الخفض أنه إذا صدق القول الحجاجي في مراتب معينة من السلم، فإن نقيضه يصدق في المراتب التي تقع تحتها نحو ما نجد في الجملة:

- الجوليس باردا

## الحوار والحوار والتخاطب الإنساني عند طه عبد الرحمن \_\_\_\_\_ مجلة نصل الخطاب

ويمكن تأويل هذه الجملة مادام أن الجو ليس بارداً، فهو حار أو صحو. أما قانون تبديل السلم فمعناه: متى كان القول دليلاً على مدلول معين، فإن نقيض القول دليل على نقيض مدلوله نحو:

- زيد ورع يكرم جاره (أ)
- زيد عفيف مخلص لزوجته (ب)
- زيد ليس ورعاً لا يكرم جاره (د)
- زيد ليس عفيفاً يخون زوجته (ج)

فإذا قبلنا الحجاج الوارد في المثالين (أ-ب)، قبلنا نقيضه الوارد في المثالين (د-ج) وأخيراً قانون القلب ومدلوله أنه إذا كان أحد القولين أقوى من الآخر في التدليل على مدلول معين، كان نقيضه الثاني أقوى من الأول في التدليل على نقيض المدلول نحو ما نجد في الجملتين الآتيتين:

- أكرم زيد عدوه
  - لم يكرم زيد عدوه، بل لم يكرم صديقه
- فإكرام زيد لعدوه أقوى دليل على نبذه، في حين أن عدم إكرامه لصديقه أقوى حجة على عدم نبذه.

### 2- الحجاج والتخاطب الإنساني معالم نظرية طه عبد الرحمن في تحليل الخطاب:

#### 1- 2 معالم الحجاج عند طه عبد الرحمن:

تعتبر كتابات الباحث طه عبد الرحمن من أهم الأعمال التي أسست للدرس الحجاجي التداولي في الثقافة العربية الحديثة، من خلال تبني منهجية مستلهمة لروح التراث العربي الإسلامي، ومستوعبة للتنظير الغربي في مجال المنطق والحجاج، مما يمكن القول معه أن كتابات طه عبد الرحمن صالحة أن تعد من الأعمال المؤسسة للتنظير في "تحليل الخطاب والحجاج".

فقد استطاع الباحث تأصيل فعل الحجاج في الدراسات، من خلال استمداد أدواته المنهجية من المنطق، والتداوليات، والاشتغال على المتن التراثي العربي القديم، ويعد مؤلف "في أصول الحوار وتجديد علم الكلام" 1987 أول مؤلف تأصيلي للحجاج في الثقافة العربية الحديثة من منظور تداولي<sup>20</sup>، وفيه وقف الباحث عند الحوار ومستوياته، وفن المناظرة، مواصلة لهذا المنوال التأصيلي التجديدي، يأتي "تجديد المنهج في تقويم التراث" 1994 و"اللسان والميزان" 1998

ليقدم طه عبد الرحمن للباحث العربي في الحجاج والمنطق عدة مفاهيمية، مستقاة من المجال التداولي للتراث اللغوي والفلسفي والفقه العربي الإسلامي، ومستوعبة للتنظير الغربي. وتتميز مؤلفات الباحث باختيارها منحي تأصيليا، ومنه لا ضير أن ينحت الباحث مفاهيم خاصة له كالفكرانية، والتسيد والكلانية والحرانية... الخ

يتحدد مبحث الحجاج باعتباره مبحثا مرتبطا بحقول معرفية متعددة كالبلغة والمنطق واللسانيات والتداوليات، ومنه فإن تحديده متعلق بالمقولات المعرفية التي اندرج معها الباحث، واتخذها إطارا نظريا لدراسة الحجاج، وتبعها للمجال المشتغل عليه، فنجد الحجاج في الفلسفة، والحجاج في النحو، والحجاج في الإشهار... الخ. ومقتضى ذلك أن يتلبس الحجاج بلبوس هذه المقولات والمجالات.

وتأسيسا على المجال التداولي<sup>21</sup> عند طه عبد الرحمن فالحجاج فعالية تداولية استدلالية، تستهدف التأثير والإقناع بدعوى، كأن يعمد العارض التدليل على دعواه بالانطلاق من مقدمات للوصول إلى نتائج، علاوة على الاتكاء على آليات لغوية تمكنه من أن " يطوي الكثير من المقدمات والنتائج، ويفهم من قوله أمورا غير تلك التي نطق بها، وكأن يذكر دليلا صحيحا على قوله من غير أن يقصد التدليل به، وأن يسوق الدليل على قضية بديهية أو مشهورة في غنى عن دليل للتسليم بها، كل ذلك لأنه يأخذ بمقتضيات الحال من معارف مشتركة ومعتقدات موجهة ومطالب إخبارية وأغراض عملية"<sup>22</sup>

وتفصيلا لهذا الكلام فالحجاج ينبني على أمور منها:

- الانطلاق من مقدمات للوصول إلى نتيجة يُراد بها إقناع الغير
- تقديم الدليل على النتيجة المراد الإقناع بها
- استحضار حقوق المعارض، وحقوق المقام
- القصد توجيها، أو إخبارا أو تهديبا أو غيرها

والملاحظ أن طه عبد الرحمن نظر للاستدلال نظرا عاما أي أن العارض قد يستدل على دعوى بديهية أو مشهورة، إلا أن الحجاج عادة ما يحتدم وينشط في الدعوى الاحتمالية، النسبية، أما الدعوى الصورية فهي قطعية ولا تحتل الحجاج، ولهذا ربطت الدراسات الحديثة الحجاج بالخطاب الطبيعي، لأنه قائم على الانزياح اللغوي والاستعاري، ومرتبطة بشروط التداول اللغوي<sup>23</sup>، ومنه فلا اعتراض على دعاوى الصورية ف:  $2 = 1 + 1$ ، و"الأرض كروية الشكل"، و"كل إنسان فان"، فهذه دعوى بديهية حتمية، أما الدعوى الحجاجية فالذي يميزها انبناؤها على الاحتمال والنسبية ف مثلا:

## الحوار والمجادلة والتخاطب الإنساني محمد طه عبد الرحمن مجلة فصل الخطاب

-أنا متعب، إذن أنا بحاجة إلى قسط من الراحة

فالمدعي يقدم دعواه لإقناع مخاطب مفترض ( معترض ) بأنه بحاجة إلى قسط من الراحة، ف(أنا متعب)، بلغة الحجاج تعتبر مقدمة، تنبني عليها النتيجة (أنا بحاجة على قسط من الراحة)، بينهما الرابط الحجائي (إذن) أو الذي يربط بين المقدمة والنتيجة.

وبالرجوع إلى طرح طه عبد الرحمن فالحجاج تتحدد معاملته باعتباره مرتبطا بما يلي:

-الاستدلال على دعوى وهو على ضربين استدلال برهاني، واستدلال حجاجي

-الإتيان بالدليل؛ ولفهم الدليل<sup>24</sup> لا بد من ربطه بالبرهان، والحجة

-العلاقات التخاطبية، باعتبار الخطاب الحجائي قائم على التفاعل بين العارض والمعارض

### 1-2-1 الحجاج والاستدلال:

الاستدلال طلب الإتيان بالدليل، وهي مهمة المدعي للنهوض بدعواه، وهو مبحث مرتبط بحقول معرفية متعددة، كالنحو والفقه والأصول والبلاغة والمنطق. فهو موضوع أغلب علماء المسلمين؛ متكلمين ونحويين وأصوليين وبلاغيين، ولا بدع في ذلك مادام الاستدلال هو على الحقيقة أصل أصول المنهجية، فأغلب العلوم الإسلامية اشتغلت بالمنهجية إن وصفا أو تحليلا أو بناء كما لا بدع أن تؤثر هذه العلوم بعضها على بعض.

ومنه لا ضير أن تنتقل أوصاف الدليل في المنطق إلى علم الكلام، ثم منها إلى علم الأصول، فالإ علم البلاغة وتتلون هذه الأوصاف بلون علم من هذه العلوم، ثم تنتقل هذه الألوان المختلفة على علم آخر، وما هذا وذاك - حسب طه عبد الرحمن- إلا أن التراث العربي ينزع نزعة تكاملية<sup>25</sup>

تأسيسا على ما سبق فإن مفهوم الاستدلال مرتبط بجميع الحقول المعرفية، إلا العلم لا يقوم إلا بالدليل والشاهد والحجة، ومنهجية في النظر، فهو " آلة من آليات الاجتهاد بالرأي في استنباط الأحكام"<sup>26</sup>

وإذا كان هذا ينسجم مع التصور الأصولي للاستدلال، فإن النزعة التكاملية بين العلوم في الثقافة الإسلامية، تجعل هذا التداخل والتحاقل بينها واضحا وبينا، وإن اختلفت اهتمامات كل مستدل، فإذا كان الأصولي يبحث في "الاستدلال لمعاد الشرع" استنباطا للأحكام الشرعية، انطلاقا من النص، لأنه لا اجتهاد مع وجود النص، أما في ما لا نص فيه فإن المنهجية الأصولية تقتضي أعمال القياس، والاستحسان، والمصلحة المرسل، وسد الذرائع والعرف وشرع من قبلنا...، فإن النحوي والبلاغي ينصب اهتمامه على معرفة المبتدأ من الخبر والفاعل من المفعول...، ومقتضيات القول وسياق المقال، والمجاز والحقيقة...الخ.

وإذا كانت كل منهجية تفرض طريقة خاصة في الاستدلال، إلا أن المشترك هو أن الاستدلال ينطوي على عمليات منطقية ولغوية، لا تتأسس وتتجلى إلا في " الخطاب"، فلا استدلال دون خطاب يحتويه ويناصره، ومقتضى هذا الطرح "لا وجود لخطاب خارج الحجاج، ولا حجاج بلا تواصل باللسان"، مادام أن الاستدلال أعم من الحجاج، فالحجاج مقصور على الخطاب الطبيعي، الغني بآليات حجاجية لسانية، المنزاح في دلالاته، عكس الخطاب الصناعي، الثابت الدلالة.

وللاستدلال مكونات، وللنص الاستدلالي شروط

#### 1-2-2 مكونات الاستدلال:

لما كان الاستدلال طلبا للدليل، وإعمالا للنظر والفكر فإن له مكونات منها:

- المستدل: وهو الطالب للدليل، والعارض بلغة الحجاج لدعواه
- المستدل له وهو المعارض الذي يطلب دليلا على صحة دعوى العارض
- المستدل عليه: وهو الرأي والدعوى المراد الإقناع به
- الدليل: وهو الحجة والبرهان المقدم لتأكيد صحة الدعوى

ويمكن أن نمثل بهذا المثال لمزيد من التبسيط

قال زيد لعمر: أكادير مدينة سياحية، لنسافر إليها

فالمستدل هو زيد، والمستدل له وهو عمر المستدل عليه السفر على مدينة أكادير، الدليل وهو كونها مدينة سياحية.

فإذا حضرت كل هذه المكونات في الخطاب سمي استدلال إظهاريا، وإذا تم إضمار الدليل، واكتفى بالنتيجة فقط نحو:

فلنسافر إلى أكادير، سمي استدلالا إضماريا، وقد تسبق النتيجة المقدمة نحو: أنا بحاجة إلى الراحة لأنني متعب، سمي استدلالا تقهقريا، وإذا سبقت المقدمة النتيجة نحو: أنا متعب إذن، أنا بحاجة إلى قسط من الراحة سمي استدلالا تدرجيا.

إلا الصنفين الكبيرين للاستدلال هما: الاستدلال البرهاني، الذي ينطوي على مقدمات منطقية للوصول على نتائج حسابية رياضية قطعية، والاستدلال الحجاجي المرتبط بالخطاب الطبيعي كعلاقات لغوية مرتبطة بدلالاتها التداولية ومقتضيات القول، أما الاستدلالان التقهقري والتدرجي، فما هما إلا تجل من تجليات الاستدلال البرهاني، ويكون الاستدلالان

## الحوار والمجادلة والتخاطب الإنساني محمد طه محمد الرحمان \_\_\_\_\_ مجلة فصل الخطاب

الإظهار والإضماري من تجليات الاستدلال الحجاجي، بالتالي فإن المقارنة بين الاستدلاليين؛ مقارنة بين نظامين؛ نظام المنطق، ونظام الخطاب. كما يقول ديكر.

### 1-2-3 شروط النص الاستدلالي:

يتميز النص الاستدلالي باعتباره بنية من العلاقات المنطقية والخطابية، تنطلق من مقدمات، للوصول إلى نتائج غرضها الاستمالة والتأثير والإقناع، والنص Texte، متوالية من الجمل المرتبطة فيما بينها، يشترط فيه للقول بأنه نص، وجود علاقات الاتساق والانسجام، أي النصية <sup>27</sup>Textualité أي تلك الآليات الشكلية والمعنوية التي تربط أجزاء النص وتجعلنا نسمة بالنصية، وتجعلنا نفرقه عن غيره مما ليس بنص!، وإذا علمنا أن النص من منظور تون فان ديك T.Van.Dik مرتبط بالسياق، (text and context)، فالقارئ هو الذي يبني انسجامه واتساقه، باستثمار إواليات السياق التي يفرضها المقال والمقام، وإذا كان هذا مطلوباً في أي نص موجه لقارئ مفترض، فإن النص الاستدلالي بدوره تستلزم فيه من المواصفات، والشروط التي تجعلنا نسمة بالاستدلالي، منها:

- النصية

- الاقتراعية

- الاستدلالية

يُقال عن نص ما إنه نص استدلاي فيه نصية إذا كان عبارة عن متوالية من الجمل مرتبطة بعلاقات (الروابط) نحو ما نجد في هذين النصين:

كل إنسان فان، وسقراط فان، إذن فسقراط فان (النص الاستدلالي البرهاني)

أو هذا الكتاب مفيد، وأفكاره جديدة، وثمانه مناسب، فلتشره (النص الاستدلالي

الحجاجي)

أما الاقتراعية، فهي تعميق لشرط النصية ومقتضاها أن تكون عناصر النص مرتبطة فيما بينها، وأما شرط الاستدلالية فمضمونه أن تكون عناصر النص مقتزنة بعلاقات استدلالية نحو قوله تعالى: "ويسألونك عن المحيض، قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض، ولا تقربوهن حتى يطهرن، فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله، إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين"<sup>28</sup>

فالنص القرآني استدلاي، لأنه توفرت فيه شروط النصية، والتماسك بين عناصره، فهو يتشكل من مقدمة كون معاشر الزوج الحائض أذى الذي يعتبر علة تحريم المعاشر، والنتيجة تستوجب اعتزال الزوج وعدم التقرب والمباشرة معها حتى يتحقق شرط الطهارة،

والرابط "حتى" رابط حجاجي من معانيه لغاية تحقق الطهارة، وذلك لأن الله يحب الطهارة والتوبة لعباده.

صفوة القول، أن النص الاستدلالي موجه لقارئ نموذجي، فلا بد أن يتمكن من ناصية اللغة، لأن الخطاب الطبيعي، لا يظهر كل شيء، فقد يضمّر نتائج، وقد يعتمد الالتباس والتغليب استراتيجيات، للوصول إلى مقاصد العارض، بالتالي فالمعتز يفترض فيه، أن يكون عارفا بهذه الاستراتيجيات للرد.

إلا أن الدراسات الحجاجية الحديثة تفرق بين الاستدلال والحجاج، فالأول مرتبط بالمنطق، أما الثاني فهو مرتبط بالخطاب كعلاقات لغوية مجازية واحتمالية، وقبل الخوض في تحليل هذا الطرح نجد طه عبد الرحمن للتفريق بين المفهومين يربط الدليل بالسلطان، والأمانة والبيّنة، والحجة والبرهان، وهي مراتب.

#### 1-2-4 الحجاج والدليل:

يختلف الحجاج عن الدليل، في كون الدليل أعم فقد يُعنى به الحجة والبرهان، أما الحجاج فهو مقترن بالخطاب الطبيعي، الذي يتمظهر بواسطة اللغة كنسق تفاعلي بين المتخاطبين، محدد بالسياق ومقتضيات القول، ومؤطر بـ"المجال التداولي" كأفكار ومسلمات مشتركة بين العارض، والمعتز.

ولمزيد من التوضيح للتمايز بين الخطاب البرهاني، والخطاب الحجاجي، يقترح (طه عبد الرحمن 1998) تمييز الحجة عن البرهان، فالبرهان نموذج صوري مجرد، عناصره مرتبة وفق علاقات حسابية ومنطقية، خاضعة لبرنامج حاسوبي، ومنه فنتائجه قطعية حتمية لا تحتل التشكيك، ومن بين سمات الخطاب البرهاني ما يلي:

- التواطؤ: ومفاده أن تكون ألفاظ الخطاب البرهاني خالية من الالتباس الدلالي والخفاء الإجمال والمشارك اللفظي بمعنى أن تكون الألفاظ واضحة دالة على معنى واحد.

- الصورية: ويقصد به أن الدليل في الخطاب البرهاني يمكن رده إلى صيغ رمزية تستغني عن أشكال اللفظ، كما نجد في الرياضيات والعمليات الحسابية.

- القطعية: وتعني أن نتائج الخطاب البرهاني قطعية الدلالة غير قابلة للاحتمال.

- الاستقلال: يتسم الخطاب البرهاني، باستقلاله عن منتجه البرهاني، عكس الحجاجي الذي يرتبط بسياق المحاجة والمناظرة.

فالذي يميز الخطاب البرهاني، بهذا المعنى أنه لا يستدعي "التعاون" بين المتكلم/العارض، والمخاطب/المعتز، كما حدده كرايس P.Grice أي أن على المتكلم والمخاطب أن

## الحوار والحجاج والتخاطب الإنساني محمد طه عبد الرحمن مجلة فصل الخطاب

يتعاوننا للتواصل لفهم وتأويل الخطاب، وعلاقته بالحجاج فالعارض مطالب أن ينتهز للدفاع عن دعواه وتقدير الدليل عليها، كما أن على المعارض أن يطالب المعارض بالدليل، أما في الخطاب البرهاني، فالفرصة لا تمنح للمعارض للاعتراض، لأن النتائج المتوصل إليها قطعية.

ومنه يكون الخطاب الحجائي متميزا عن الخطاب البرهاني في أوجه عدة منها:

- الالتباس: فالعارض لدعوى في الخطاب الحجائي، قد يظهر أو يضمّر عناصر مهمة، وقد يستعمل أساليب مجازية تحتمل تأويلات عديدة، مما يمكن أن يوقع المعارض في الالتباس.

- الاحتمالية: من سمات الخطاب الطبيعي أن نتائجه احتمالية نسبية، فالعارض يقنع المعارض بوجهة نظريه بصفة الإلزام والقطعية، بل بصفة الاحتمال وتبادل وجهات النظر.

- القصد والرجوع: ذلك أن من معاني الحجة القصد، لأن الكلام محدود بقصد التأثير والتأثير والتوجيه، فالعارض يقصد من التدليل لدعواه التأثير في المعارض وتوجيهه إلى رأي أو تهذيب سلوكه، كما أن من معاني الحجة الرجوع إليها للاحتكام إليها لإفحام الخصوم.

- الغلبة: يهدف العارض من دعواه مغالبة المعارض بالحجة، وإلزامه بها فيصير مغلوبا بها.

حاصل القول أن الحجاج في تصور طه عبد الرحمن مرتبط بالخطاب الطبيعي، حتى كأنه لا خطاب من غير حجاج، ومقتضى هذا الارتباط؛ القصد والتأثير والتوجيه والتبليغ، في إطار العلاقات التخاطبية التي تربط المتكلم/العارض، بالمخاطب/المعارض، تجعل الخطاب الحجائي مرتبطا بالمجال التداولي، كمسلمات وعقائد وأفكار وسياق مشتركة بينهما، مما ينتج عنه العدول بالخطاب الحجائي عن الصورية والحسابية، إلى لغتي الإضمار والإظهار والأساليب المجازية، مما يجعل النتائج المتوصل إليها في الحجاج احتمالية، ولا تفيد القطعية، مما يجعل الخطاب الحجائي أنشط وأخصب، في الخطاب الطبيعي ومجالا مفتوحا للتدافع والمغالبة بالحجج، وميدانا ثريا للتعدد والاختلاف، مقارنة بالخطاب الصناعي المرتبط بالبرهان القطعي الدلالة.

### 2-2 الحجاج والتخاطب الإنساني:

لما كان الحوار مرتبطا ارتباطا وثيقا بالحجاج في إطار ما كنا نرمي الوصول إليه "حجائية الحوار، وحوارية الحجاج" وجب أن ينضبط الحجاج لمبادئ التخاطب الإنساني كقواعد تواصلية وعملية.

وهذا ما نجده في معالم نظرية طه عبد الرحمن في نظره للفعل الحجائي مرتبطا بالتخاطب كأداب يجب التحلي بها من طرف المتخاطبين والتي تجعل خطابهم بعيدا عن اللغو واللجاج والسفسطة والمغالطة.

### 3-2 2-2-1 الحجاج والعلاقات التخاطبية:

ينبغي الفعل الحجاجي على الرغبة في التفاعل مع الآخر لإقناعه بدعوى ما، أو التأثير في فكره أو وجدانه، ولما كان الخطاب يتحدد في انبثائه على العلاقات التخاطبية، ومقتضاها أن المخاطب يروم من خطابه تحقيق قصدين مزدوجين: قصد التوجه إلى الغير، وقصد إفهامه، كان لزاما أن تحكم التخاطب مبادئ وقواعد يجعل انخراطها من طرف المخاطب أو المخاطب انخراما لحبل التواصل وسيرورة الخطاب.

ويقوم تصور الباحث طه عبد الرحمن للحجاج اللغوي باعتباره قائما على العلاقة التكوينية، ومعنى هذا أن الحجاج قائم على علاقات ثلاثة:

● علاقات تخاطبية فالحجاج لا يتجلى إلا في الخطاب الطبيعي كآليات لغوية واستعارية، ثم إن المخاطب يروم تحقيق قصدين هما: قصد التوجه للغير فكل خطاب موجه لمخاطب ما، وقصد الإفهام أي إفهام المخاطب بفكرة أو دعوى ما.

● علاقات استدلالية: فالمحاج في خطابه يقصد منه الاستدلال على دعوى ما، من خلال تحقيق قصدين: قصد الادعاء؛ أي نهوض المدعي للاستدلال على دعواه، وقصد الاعتراض أي مطالبة المعارض المدعي الدليل على دعواه، والحجاج من طبيعة الحال بناء على هذا التصور درجات، فحجاج تجريدي، وحجاج توجيحي، وحجاج تقويحي الذي يعتبر أعلاها.

● علاقات مجازية: ذلك الحجاج لا يستثمر فقط الآليات التركيبية التي تخولها اللغة الطبيعية، بل يستثمر آليات مجازية استعارية توقع الخطاب الحجاجي في الالتباس بين قصدين: قصد الواقع، وقصد القيمة، فالقول المجازي أكثر قوة حجاجياً من القول العادي، ويمكن الاستدلال بالمقارنة بين القولين الحجاجين:

- زيد شجاع (أ)

- زيد أسد (ب)

فالقول (ب) أكثر قوة حجاجياً من القول (أ)، مما جعل أحد الباحثين في الحجاج يعتبر الاستعارة من الوسائل اللغوية التي يستغلها المتكلم للوصول لأهدافه الحجاجية، ومنه لا ضير أن يطلق عليها، " الاستعارة الحجاجية"<sup>29</sup>

### 2-2-2 الحجاج ومبادئ التخاطب:

لما كان الفعل الحجاجي قائما على التفاعل والتخاطب بين العارض والمعارض، وجب أن ينضبط الحوار الحجاجي، لأخلاقياته ومبادئه؛ التواصلية والتعاملية.

## الحوار والمجادلة والتخاطب الإنساني عند محمد عبد الرحمن - مجلة فصل الخطاب

فمقتضى المبادئ التواصلية، أن يستوفي الفعل الحجاجي شروط العلاقات التخاطبية والاستدلالية والمجازية، إذ بدون هذه الشروط يدخل الفعل الحجاجي إلى دائرة السفسطة والمغالطة والتمويه والاراعة والتبكيث.

أما مقتضى المبادئ التعاملية، هي قواعد أخلاقية يجب أن يتوفر عليها منتجوا الخطاب، بحيث تجعل علاقاتهم يوطرها الود والاحترام، ومن هذه المبادئ:

### أ - مبدأ التعاون:

يرجع هذا المفهوم التخاطبي إلى بول كرايس، استثمرا منه لنظرية الأفعال الكلامية، ومفاده أن يتعاون كل من المتكلم والمخاطب لإنجاح العملية التخاطبية بينهما، وتحكم هذا المبدأ قواعد منها:<sup>30</sup>

- قانون الكمية Maxime de quantité

أن تساهم في الحوار بقدر المطلوب منك أي الإجابة على قدر السؤال

- قانون الكيف Maxime de Qualité

تحر الصدق

- قانون الملاءمة Maxime de Pertinence

حاول أن تكون مشاركتك ملائمة لسياق الخطاب أي استيفاء مقتضيات المقال والمقام

- قانون الصيغة Maxime de Modalité

تحر الوضوح وتجنب الإبهام واللبس، وكن موجزا

إلا أن هذه القواعد التي جعلها كرايس تحكم التخاطب الإنساني لحقتها انتقادات كثيرة، وتعديلات منها قصور تصور كرايس على الجانب التبليغي، دون الأخذ بالجوانب الأخرى كالتنزيهية والتأديبية والاجتماعية للتواصل الإنساني، مما جعل تصوره آليا، لزم معه تجاوزه إلى مبدأ آخر يجمع جانب التبليغ بالتنزيه.

### ب- مبدأ التأدب:

اقتضى قصور مبدأ التعاون لبول كرايس في الإحاطة بجوانب التخاطب الإنساني، تجاوزه إلى مبدأ يأخذ بالجوانب التي أغفلها كرايس، وفي هذا الصدد تقترح الباحثة روبين لأكوف Robin Lakoff، مبدأ التأدب وصيغته:

لتكن مؤدبا

وتتفرع عن هذا المبدأ قواعد منها:

● قاعدة التعفف ومفاده:

لا تفرض نفسك على المخاطب

● قاعدة التشكك ومقتضاها:

لتجعل المخاطب يختار بنفسه

● قاعدة التودد:

لتظهر الود للمخاطب

الملاحظ أن هذه القواعد مترابطة بطريقة تدرجية، فالتعفف يعني ألا يستعمل المتكلم من العبارات إلا ما يمكنه من حفظ مسافة بينه وبين المخاطب، متجنباً في عباراته الصيغ الوجدانية، ولا مقتحماً الشؤون الخاصة بالمخاطب دون الاستئذان والاعتذار.

أما التشكك فتقتضي أن يتجنب المتكلم أساليب التقرير، ويأخذ بأساليب الاستفهام كما لو كان متشككاً في مقاصده، تاركاً للمخاطب فرصة استنباط المقصود نحو: أنت تخاطب مسافراً معك في الحافلة عوض أن تقول له: افتح النافذة!

تقول: هلا فتحت النافذة قليلاً؟

وتعتقد روبين لاكوف أن قواعد مبدأ التأدب كلية مما جعل مجموعة من الدراسات تشكك في قدرة هذا المبدأ على الأخذ بالجانب العملي والإصلاحي الذي يقتضيه التهذيب، فهو جمد عند الجانب التجريدي للتهذيب دون تجاوزه إلى الجانب العملي الإصلاحي المقوم للتخاطب، بالتالي فاكتفاء "مبدأ التأدب" عند لاكوف بالجانب التجريدي للتهذيب، يقتضي البحث عن مبدأ يفي بالغرض إنه مبدأ التواجه.

ج - مبدأ التواجه:

اقترحه بنلوب براون Penelope brawn وستفن ليفنسن Stephen Levinson ومقتضاه "مقابلة الوجه للوجه" وصيغته:

لتصن وجه غيرك

وينبني هذا المبدأ التخاطبي على مفهومين أساسيين هما الوجه والتهديد، فالمتكلم يحرص على حفظ ماء وجهه، بحفظ ماء وجه المخاطب، تجنباً لكل تهديد يחדش سمعته أو قيمته الاجتماعية وغيرها، وتتفرع عن هذا المبدأ خمس خطط تخاطبية يختار المتكلم ما يناسب قصده من التخاطب هي:

- أن يمتنع المتكلم عن إيراد القول المهيد

## المحاور والمعالج والتخاطب الإنساني محمد طه محمد الرحمان مجلة فصل الخطاب

- أن يصرح بالقول المهدد من غير تعديل يخفف من جانبه التهديدي
- أن يصرح بالقول المهدد مع تعديل يدفع عن المستمع الإضرار بوجهه الدافع
- أن يصرح بالقول المهدد مع تعديل يدفع عن المستمع الإضرار بوجهه الجالب
- أن يؤدي القول بطريق التعريض، تاركا للمستمع أن يتخير أحد معانيه المحتملة<sup>31</sup>
- إلا أن حرص هذا المبدأ التخاطبي على التقليل من التهديد الذي يمكن أن يُصادفه المتكلم يجعل هذا المبدأ مقتصرًا على تلطيف العبارات اللغوية درءًا لأي تهديد محتمل من المخاطب، بل إنه يعتبر هاجس الدخول في التخاطب هو حفظ الوجه من التهديد، إلا أن التخاطب الإنساني عملية أكبر من أن تكون حفظًا للوجه من التهديد الذي يمكن أن تتعرض له الذات المتكلمة أو المخاطبة في سمعتها أو في خطابها مما يجعل التفكير في مبدأ آخر مشروعًا.
- د- مبدأ التأدب الأقصى:

مبدأ تخاطبي اقترحه جوفري ليتش Geoffrey Leech تكملة لمبدأ التعاون الذي اقترحه بول كرايس، وتجاوزا لقصور مبدأ التواجه، وينبني مبدأ التأدب الأقصى على صيغتين إيجابية وسلبية وهما:

- أكثر من الكلام المؤدب
  - قلل من الكلام غير المؤدب
- وتتفرع عنه قواعد متعددة منها: قاعدة للباقة، وقاعدة السخاء، وقاعدة الاستحسان، وقاعدة التواضع، وقاعدة الاتفاق، وتضمن هذه القواعد بتضافرها تقرب المتكلم من المخاطب، وتدفع بالتعاون بينهما.
- إلا أن الملاحظات التي يمكن تسجيلها بصدد هذا المبدأ والقواعد المتفرعة عنها، ميله إلى التظاهر بالتأدب، وحرصه على تلبية الأغراض والخدمات، كتأدب البائع مع الزبون في المعاملة التجارية.
- ويتجلى الحرص على قضاء الأغراض من خلال ربط قاعدتي اللباقة والسخاء بالريح والخسارة، وربط قواعد التواضع والاتفاق والتعاطف والاستحسان بالتصنع في مدح المخاطب، مما يمكن أن يحول دون تخاطب خالص وصادق مبني على قيم معنوية، بعيدا عن الأغراض والمصالح المادية مما يجعل هذا المبدأ قاصرا لانبنائه على قضاء الأغراض والمصالح.
- مما يجعل هذا المبدأ قاصرا عن بلوغ التهذيب الخالص الذي يترفع عن الأغراض ويسمو إلى الصدق والإخلاص في التخاطب.

د- مبدأ التصديق:

مبدأ اقترحه الباحث طه عبد الرحمن لتجاوز ثغرات المبادئ التخاطبية السابقة وقد استمدّه من التراث الإسلامي وصيغته:

- لا تقل لغيرك قولاً لا يصدقه فعلك

وينبغي هذا المبدأ على عنصرين اثنين أولهما " نقل القول " وثانيهما " تطبيق القول"، ومعنى أن قول القول مرتبط بتطبيق مضمونه، فإذا كان طيب يدخن ينصح مريضاً بمخاطر التدخين!! سنعد هذا التخاطب شاذاً بحسب مبدأ الصدق.

ويتفرع عن مبدأ التصديق قواعد منها:

- قاعدة القصد:

لتفقد قصدك في كل قول تلقي به إلى الغير

- قاعدة الصدق:

لتكن صادقاً فيما تنقله إلى غيرك

- قاعدة الإخلاص:

لتكن في توددك للغير متجرداً عن أغراضك

فمقتضى قاعدة القصد تحديد الغرض من التخاطب وهو إفادة المخاطب بمقصود ما وإلا عد الكلام هذياناً ولغوا لا طائل من ورائه وهو ما ابتغاه الماوردي في قوله: "أن يكون الكلام لداع يدعو إليه، إما في اجتلاب نفع، أو دفع ضرر"<sup>32</sup>.

ومقتضى هذا القاعدة أن يتحمل المخاطب مسؤولية فهم القصد من الدخول في التخاطب.

أما مضمون قاعدة الصدق فتعني أن يكون المتكلم صادقاً في نقل الخبر، وصادقاً في العمل به، أي أن يكون قوله مطابقاً لسلوكه وفعله، ذلك أن المخاطب لا يستمع فقط لمضمون القول، بل ينظر لسلوك المتكلم، فالحوة بين الفعل والقول تشكك في مصداقية قائل القول ومشروعيته، وفي القرآن ما يدل على هذا " أأأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب".

أما قاعدة الإخلاص فتستوجب أن يكون القصد من الدخول في التخاطب هو التجرد من المصالح والأغراض، مما يضمن التنافس في التخلق بين المتكلم والمخاطب بالتالي التقرب الصادق الخالص بينهما

## الحوار والمعالج والتخاطب الإنساني محمد طه عبد الرحمن مجلة فصل الخطاب

صفوة القول بهذه القواعد التي انبنى عليها مبدأ التصديق الذي اقترحه الباحث طه عبد الرحمن، يكون هذا المبدأ مستوفيا لشروط التبليغ والتهذيب التي يقتضيها التخاطب الإنساني، لبعده عن التواصل الآلي الذي يقتضيه مبدأ التعاون الذي جاء به كرايس، ولحرصه على اعتبار الأصل في الدخول في التخاطب هو الإخلاص والصدق في القول، بالتالي يتجاوز قصور مبدأ التواجه الذي جاء به براون ولفنسين، الذي يربط التخاطب بحفظ ماء الوجه من التهديد، علاوة على تجاوز قصور مبدأ التأدب الأقصى الذي اقترحه جوفري ليتش، المرتبط بالأغراض والتصنع في مدح المخاطب، لانباء مبدأ التصديق على الصدق والإخلاص والقصد، ومطابقة القول للفعل، والتجرد عن المصالح والخدمات مما جعل هذا المبدأ شاملا لجوانب التخاطب الإنساني.

### خاتمة:

استطاعت دراسات الباحث طه عبد الرحمن في الثقافة العربية الحديثة أن تتبوأ مكانة سامية في حقل الحجاج، فهي تجمع بين المنطق والحجاج والتداوليات، وتستمد أصولها من استيعاب الدراسات الغربية الحديثة في مجال المنطق والحجاج والتداوليات، والفهم المتعمق للتراث العربي البلاغي واللغوي والفلسفي، مما يصح معه القول أن دراساته صالحة أن تعد نظرية في تحليل الخطاب تسهم في معالجة قضايا الخطاب.

وتكمن أهمية هذا الطرح الذي بعنوان الدراسة- الحوار والحجاج اللغوي والتخاطب الإنساني- في كونه يربط فعل الحجاج بالانتهاض للتدليل على دعوى ما، ولا يمكن التدليل على دعوى دون استحضار لمبادئ التخاطب أي آداب المخاطبة.

تحتاج الساحة الثقافية والسياسية والإعلامية، لما بعد الربيع إلى "الممارسة الحوارية العقلانية" بشروطها الحجاجية، وباستحضار قواعد التخاطب الإنساني التي تؤمن بحرية الإنسان في التعبير عن أفكاره، وأن يرافع عنها بالحجة المقنعة بعيدا عن المغالطة والسفسطة، التي حولت الكثير من حواراتنا اليوم إلى حروب كلامية، استبدل فيها حجاج العقل، بالعنف الكلامي والسفسطة والتمويه والتبكيك، ونأمل أن تساهم هذه الدراسة في التأسيس لممارسة حوارية حجاجية جديدة في السياسة والإعلام قوامها الاحتكام للعقل، والترفع عن الانسياق وراء المغالطة والتمويه.

### مراجع البحث وإحالاته:

1 طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، الطبعة الثالثة 2007، المركز الثقافي العربي، ص: 65

- 2 رشيد الراضي، الحجاج والمغالطة من الحوار في العقل إلى العقل في الحوار، منشورات دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، 2010، ص: 48
- 3 طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ص: 20
- 4 التسديد مفهوم استعمله الباحث طه عبد الرحمان في كتابه "روح الدين من ضيق العلمانية إلى سعة الانتمانية" المركز العربي 2012 ويقصد به الإنسان الأفقي العلماني الذي يعتقد أنه سيد مع ما يترتب على هذا التسديد من ظلم وعنف وطغيان، في مقابل الإنسان العمودي الدياني الذي يؤمن أنه عبد لمعبود هو الله. للتوسع أكثر ينظر في صفحات الكتاب.
- 5 طه عبد الرحمن، روح الدين من ضيق العلمانية إلى سعة الانتمانية، الطبعة الأولى 2012 المركز العربي الدار البيضاء، ص: 292
- Jacques Moeschler: Argumentation et conversation: éléments pour une analyse pragmatique du discours.op.cit.p.112
- 17 الآية 80 سورة الأنعام
- 18 الآية 13 سورة الشورى.
- 19 الآية 66 سورة آل عمران
- 10Ch.Perlman et O.Tyteka.: la nouvelle rhétorique traite argumentation. Paris.1958
- 11O.Ducrot.les échelles argumentative, Editions de Minuit,Paris ,p10.
- 12 O , Ducrot Dire et ne pas dire principe de sémantique linguistique Herman ,paris,1972
- 13 طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، ط2 س2006 ص: 104
- 14 يسميه أبو بكر العزاوي التساوق الحجاجي، أنظر الحجاج واللغة، ص: 68 ويسميه رشيد الراضي التساند الحجاجي، الحجاجيات اللسانية والمنهجية البنوية، ضمن الحجاج مفهومه ومجالاته، إعداد وتقديم حافظ اسماعيلي علوي، عالم الكتب الأردن 2010، ص: 95 وما بعد
- 15 يسميه أبو بكر العزاوي التعارض الحجاجي، أنظر الحجاج واللغة، ص: 68 ويسميه رشيد الراضي التعاند الحجاجي، الحجاجيات اللسانية والمنهجية البنوية، ضمن الحجاج مفهومه ومجالاته، إعداد وتقديم حافظ اسماعيلي علوي، عالم الكتب الأردن 2010، ص: 95 وما بعد
- 16O.Ducrot, les échelles argumentative. p 17
- 17 لمزيد من التفصيل يمكن الوقوف عند تحليلات أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، ص: 59
- 18 شكري المبخوت، نظرية الحجاج في اللغة، ضمن مصنف "الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم" إشراف حمادي صمود، جامعة منوبة تونس 1998، ص: 352
- 19 طه عبد الرحمان، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي مرجع سابق، ص: 277
- 20 استعملنا مصطلح "تداولي"؛ لأن كتاب العمري الصادر عام 1986 يعتبر أول عمل حجاجي من منظور بلاغي أسلوب.
- 21 نستعمل مفهوم المجال التداولي كما نجده عند (طه عبد الرحمان 1994) أي كل المقتضيات العقدية والمعرفية واللغوية القريب منها والبعيد المشتركة بين المتكلم والمخاطب والمقومة لاستعمال المتكلم لقول من الأقوال بوجه من الوجوه" ص: 243 وما بعدها

- 22 طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، مرجع سابق، ص: 46
- 23 يشترط في كل تداول لغوي ما يلي: النطقية، الاجتماعية والإقناعية والاعتقادية، انظر طه عبد الرحمن: في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، ص: 37 و38
- 24 لتحديد مفهوم الدليل ربطه طه عبد الرحمن بمفاهيم من قبيل: الدليل والسلطان، الدليل والحدس، الدليل والرأي، الدليل والعلة، الدليل والسند، الدليل والشاهد، الدليل والأمانة، الدليل والبيئة، الدليل والحجة، الدليل والبرهان، انظر اللسان والميزان، ص: 131 وما بعدها غير أننا سنركز على المفهومين الدليل والحجة والدليل والبرهان للتمييز بين الخطاب الطبيعي والخطاب الصناعي
- 25 طه عبد الرحمن، اللسان والميزان، ص: 131
- 26 أحمد كروم، الاستدلال في معاني الحروف دراسة في اللغة والأصول، ط 1 المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، ص54
- 27 محمد خطابي، لسانيات النص: مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط2، 2006، ص13
- 28 الآية 219-220 سورة البقرة
- 29 أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج،: 110
- 30-P. Grice, Logique et conversation, in: L'information grammaticale, trad. Par: F. Berthet et M. Bozen, Paris, n°66,1995: pp. 51-71.
- 31 طه عبد الرحمن، اللسان والميزان، مرجع سابق ص: 244
- 32 أبو الحسن علي بن محمد الماوردي، أدب الدنيا والدين، تج: حمزة النشترتي وآخرون، المكتبة القيمة، القاهرة، ص: 244.